فلسفة ادبية بلا دين

لحضرة الاب اسكندر دي ڤياله اليسوعي

هذا مذهب من انكروا وجود الله عزّ وجلّ وهم مع ذلك يرغبون في المحافظة على الاديانات لانها اصل الارتقاء في الحضارة والارتقاء هو السنّة الوحيدة التي يؤمنون بها الآن والصنم الحديث الذي يسجدون لهُ ويقدمون لهُ بخور الاكرام

الّا انّ الامر لم يأتِ طوع رغائبهم ولا عجب لانهم يحاولون ان يجمعوا بين نقيضين إلحادٍ وآدابٍ وهو ضرب من المحال. لانّ الاداب لا تقوم بلا اصول عقلية راهنة ثابتة رأسها الاعتقاد بوجود الله كما لا يقوم البناء بلا اساس متين والإلحاد ينفي تلك الاصول وينقض ذاك الاساس الّم يكن عملاً فعلى الاقل نظرًا. فاصبحوا بين عاويتين لا خلاص لهم من احداهما الّا بالوقوع في الاخرى. اذ اكتفوا بجحود الباري هدموا السور المنيع الذي تتحصن فيهِ الآداب فترد منهُ هجمات الشهوات. واذا قالوا بضرورة البنيان على اساس الاعتقاد اضطروا الى القول بوجود الخالق الديان وهي الآفة التي يستميذون منها لانها تقيد حرّية الافكار كما يقولون بل بالحري حرّية الاعمال في استباحة بعض ما تهوى النفس ولا يُحلهُ الله. فهم من وراء ذلك في عناء مُعنٍ يكدون ويجدّون وراء بغيتهم. وقد ظنوا انهم بلغوا المرام بفصل الاديانات عن الاعتقاد وقطع علاقاتها مع الله واقامتها على دعائم جديدة. ولكنهم لم يتفقوا بعد على رأي. فتراهم يهدمون اليوم ما بنوا امس ولا يستقر لهم قرار. ما لم تقل لنّ ذاك التغيير هو عين النجاح وهو مقال لا يستكف منهُ اشياع النشوء والارتقاء. وان كان من اغرب البدع حتى في جيل الغرائب. وقد سموا مذاهبهم باسم شامل لها على اختلاف نزعاتها وهو «الفلسفة الادبية المستقلة» (la Morale Indépendante) ومعناها الصريح كما قلنا: الفلسفة الادبية التي لا علاقة لها مع الله. وغايتها تهذيب الانسان دون الالتجاء الى الاقرار بوجود الباري والخضوع لاحكامهِ وهو متعذر كما سنبينهُ في هذه المقالة ان شاء الله

وما كنّا لنتعب قراءنا بذكر هذه الاقوال المجحفة بحقوق الانسانية والمقوضة لاركان الهيئة الاجتماعية لو لم نرَ في صحف وجلّات يدّعي اعلامها العلم تارةً مقالات صريحة واخرى وهو الغالب تعريضات لا يخفى مغزاها على احد غايتها بث تلك التعاليم الفاسدة. وقد ذهبوا فيها كل مذهب بل سبقوا زملاءهم الاوربيين لانهم لا يرتابون قط في صحة قضية من القضايا التي ينقلونها عنهم ولا يعرفون التردد ما هو. ذلك اعظم شاهد على قصر باعهم في الابحاث الخطيرة التي يخوضون فيها بلا استعداد وقلة تبصرهم في امور تُنتج العظائم. فعسى ان يكون جهلهم عذرًا يخفف عليهم ثقل الجريمة التي يرتكبونها باشاعة مذاهبهم فيما بيننا

*

اعلم انَّ المسألة الاساسية في الفلسفة الادبية هي البحث في اصل « الواجب » (le devoir) لانَّ الانسان لا يقدر ان يقوم بواجباته حقّ القيام مع ما يشعر به من النفور منها والمنازعة الى اتباع الهوى الّا اذا كان على يقين من ضرورة تتميمها. واما هذه الضرورة فلا بدَّ لها من اركان تعتمد عليها والّا لما قويت على انفاذ احكامها بين البشر. فهذه الاركان التي يتحتم على الانسان معرفتها قبل كل شيء هي موضوع مقالتنا. ومحبة بالتدقيق حصرناه في سؤال واحد وهو هذا: لماذا نقول عن الواجب انهُ واجب؟ او بكلام آخر: ما الذي يلزمنا بتسمية الواجب؟ او ايضاً لِمَ يجب على الانسان ان يتصرف بحسب الشريعة المكتوبة في قلبه فيعمل الخير ويحيد عن الشر؟ ولئلا يبقى ادنى التباس في الغرض من بحثنا نوضحهُ بمثل: نفترض انساناً اودع عند صاحب لهُ اسمهُ س مبلغ الف ليرة وذلك دون ان يطلب صكًّا او ان يُشهد عليه احدًا. فكل انسان عاقل يقر واصحاب « الاداب المستقلة » لا يخالفوننا بانَّ س ملزوم بردّ الوديعة وبانَّ ذا فرض واجب عليه والّا كان سارقاً لحفظه مالًا لا حق لهُ عليه. فنسأل الان اصحاب « الآداب المستقلة » ما الذي يوجب على س رد الوديعة؟ ولا يخفى على احد خطر هذا السؤال. فاذا كانت هذه المذاهب التي تحب الاستقلال عاجزة كل العجز عن الجواب واذا كانت مبادئها تؤدي الى مخالفة هذه الحقيقة التي لا ينكرها احد انهُ يجب ردّ الوديعة لصاحبها لزم القول بانها فاسدة برمتها لانَّ اصلها فاسد. وانَّ الاعتقاد

بوجود الله ضروري للمحافظة على الآداب ومراعاة حقوق التمدن الصحيح. وبالتابع بانَّ وجود الله حقيقة ثابتة راهنة لا تزعزعها يد الالحاد

اما الاجوبة على سؤالنا فكثيرة وسنورد البعض منها ولكن قبل ذلك ينبغي ان نبين معنى لفظة « الضرورة » التي نأتي بها مرارًا

انَّ الضرورة انواع منها الضرورة « الطبيعية » (physique) وهي التي لا تنالها يد الاختيار - اي التي نجدها في الافعال الطبيعية التي لا يتعلق وقوعها بحريَّة الفاعل. مثال ذلك: لو زلَّت بك القدم فسقطت من اعلى السطح فانَّ هبوطك في الفضاء بموجب نواميس الطبيعة امر ضروري لا تؤثر فيه ارادتك. لانك لو احببت في وقت سقوطك ان تخالف تلك النواميس وتلغي السرعة التي لا تزال تتزايد مع ارتفاع السطح عن الارض لما اثرت ارادتك في سقوطك ولا نجتك من العطب عند وصولك الى الثرى. تلك ضرورة « طبيعية ». ومن المعلوم انهُ ليس الكلام عنها في هذه المقالة. وما اشباه هذه الحوادث بموضوع علم الفلسفة الادبية بل هي موضوع العلوم الطبيعية

اما الضرورة التي نتكلم عنها فهي الضرورة المسمَّاة « ادبية » (morale) وهي تختلف كل الاختلاف عن الاولى. فهي التي يتصف بها الفعل البشري أعني الفعل الصادر عن قوَّة الانسان الاختياريَّة او الفعل الذي ينسب الى الخير او الشر فيقال عنهُ انهُ صالح او طالح كالضرورة التي تقضي على س في المثل الذي ضربناه بردّ الوديعة. هذه الضرورة لا تخل بحرية الانسان لانهُ لا يزال معها قادرًا على الاختيار بين الانقياد اليها والعصيان عليها. فاذا فهمتَ ذلك فاسمع احتجاجات اصحاب الاستقلال على س ومنها تبين لك مذاهبهم ويتضح لك ضعفها. فانا نفترض ان س لمَّا حصل المال في يده ولم يكن هناك شاهدٌ على انهُ وديعة غلب عليه شيطان الطمع فاحبَّ ان يحفظهُ معتذرًا بان ليس هناك من داعٍ لرد الوديعة فاقبل عليه اشياع الاستقلال يؤنبونهُ ويجتهدون باقناعه

يقول برودون (١ (Proudhon): كيف تتبرَّأ من المال وتحنث في العهود ؟ ردّ الوديعة الى صاحبها

— وما يلزمني بردها

---

١) هو من الكتَّاب الاشتراكيين الفرنسيين وزعمائهم عاش في الجيل المنصرم

— . الضمير وعواطف العدل الموجودة في قلبك . اما تشعر في نفسك بانَّ الصلاح والواجب يقضيان عليك بردّ المال ؟

— نعم اني لشعر بصياحهما واعرف اني تخطئ ان لم اصغ لهما سمعاً . ولكن انّى لهما ان يطالباني بالمال ؟ اما صوتهما توهم عقل ضعيف لا يستحق أن يؤبه لهُ ؟

— انهما يطالبانك باسم تلك الجاذبية التي في الصلاح . اما اختبرت انَّ للافعال الصالحة قوة تستميل اليها قلوب البشر ؟ فهي التي تضطرك الى رد المال

— لا انكر انَّ الصلاح يستميل قلوبنا ولكنَّ بين الميل والضرورة بوناً شاسعاً . ثم إن غلب هذا الميلَ حبُّ المال افاكون انا محقوقاً ؟ والحال انَّ حب المال غلب جاذبية الصلاح في قلبي ولذلك اراني مضطراً الى حفظ المال

سكت برودون وقد تفندت حججهُ فبرز غيره من المحدثين وهم يصرخون : ياشقي نور عقلك يبين لك ما يتحتم عليك فعلهُ فهو الصواب فاذعن لهُ

— اني اعلم حق العلم بانَّ نور العقل يبين لنا ما يحسن فعلهُ . ولكن من يلزمني باتباعه

— العقل ايضاً

— العقل نور يضيء الطريق لا قوة تدفع الناس عليها

— اتسلم بان ردّ الوديعة فعل جيّد وتأبى اتمامهُ ؟ اما ترى انَّ بين قولك وفعلك تناقضاً يأباه العاقل

— لا وعمر الحق ليس بين قولي وفعلي تناقض البتة . قلت انَّ رد الوديعة فعل صالح ولم اقل انهُ واجب . فالصالح غير الواجب . وبما انهُ ليس واجباً او على الاقل بما انك لم تبين لي بانهُ واجب لا اريد ان اتممهُ . لاني لست مكلفاً بكل عمل خير سنح لي والّا لما وجد رجل صالح على وجه البسيطة لانَّ الانسان لا يقوى على انجاز كل الافعال الصالحة ولئلّا يقوم بما وجب عليهِ منها

— اذاً ترضى بان تسمى جاهلاً . لانَّ الجاهل من ترك الصلاح واقبل على ما يستقبحهُ العقل

— كلا لا ارضى بذلك ولا اكون جاهلاً بحفظي الالف الليرة . لانَّ رد الوديعة هو

فعل صالح « نظرًا » ليس الّا. ولمّا لم يكن هناك موجب يضطرني لانجازه فهو غير صالح عندي « عملًا » اذ انا في حاجة ماسّة الى الدراهم. فصلاحي بابقاني المال في قبضتي

وهاكم كانت (١ (Kant) يهرول مسرعاً لمساعدة اشياع العقل وهو يقول: لم تتعب ياهذا. اتسأل من يجبرك على اتباع نور العقل النظري؟ فاعلم ان العقل العملي (la raison pratique) يأمرك بالانقياد اليه

— وما هذا العقل العملي؟

— هو الذي تسمع امره في اعماق ضميرك وهو يصرخ لك: رد المال

— اجل ولكن اقذني من هو هذا الرئيس الذي تسميه العقل النظري ومن اعطاه السلطة عليّ حتى يأمرني بحيث لا يبقى بوسعي ان اخالف وصاياه؟

— العقل العملي ليس هو الّا انت

— انا؟ انا آمر ذاتي يرد الوديعة! هذا ممّا يضحك الثكلى. ولكن لا باس. فبما اني آمر نفسي فاني آمرها بحفظ المال

فكيف رأيت ايها القارئ اللبيب؟ اما اصاب صاحبنا في جوابه؟ لا شك في ذلك ان كان كانت محقاً في زعمه. لانهُ اوضح من الشمس في رابعة النهار انهُ ما من احد يستطيع ان يلزم نفسهُ بذاته الزاماً مطلقاً فانّ الذي يقيد ارادته لهُ ايضاً ان يحلها. وذلك لانهُ من المحال ان يكون الانسان رئيساً ومرؤوساً في وقت واحد ومن جهة واحدة. لان الملزوم بشريعة ما خاضع لواضع تلك الشريعة. فلو كان الانسان خاضعاً للشريعة في حال كونهِ مشترعاً لها لكان الآمر مأموراً في وقت إصداره الامر والحاكم محكوماً عليهِ في حال إنفاذه الحكم وهو عين التناقض كما عرفت من علم المنطق. وقد ظهر ضعف هذه المذاهب التي لا تعيّن للواجب اساساً خارجاً عن عقل الانسان او ارادتهِ فاخذ اشياع الاستقلال ينشدون ضالتهم من الخارج وهو الصواب كما رايت. ولكنهم ضلوا هم ايضاً بتعيينهم غير الله اساساً للواجب

يقول الواحد منهم لصاحبنا س حتى يقنعهُ: انّ الشرف ياهذا يوجب عليك ردّ الوديعة

١) وهو فيلسوف المانيا ولد سنة ١٧٢٤ ومات سنة ١٨٠٤

— العفو ياسيدي هذا لا يقولهُ الشرف لان الشرف يقول : ان اردت ان تحافظ على حقوقي نرد المال . ولكن من يلزمني بوضع الشرط ومراعاة حرمة الشرف

— اذًا رضيتَ بالذل والعار ؟

— هيهات ولا خوف عليَّ منهُ لاني معروف بالاستقامة ولا احد يقوى على توجيه الشبهة اليَّ بانني سرقت الف ليرة

— تكتفي على الاقل ينبغي عليك ان تعترف امام نفسك بانك بلا شرف

— لا لا ياغيلوف لانَّ الشرف ليس في نفس صاحبه ولكنهُ في اعتبار الغير فهو الاكرام الناتج عن حسن السمعة . والحال املي وثيق بانني لن ازال طيّب المسموع لانهُ كما قلت لك ليس بيد خصمي بيّنة البتة . ثم لو افترضنا انَّ القال والقيل كثر بين الناس في حقي فأرض الله واسعة فسارحلنَّ من ارض اخاف فيها مذلة واترل في بلد لا يعرفني فيهِ احدٌ واكتسبنَّ فيهِ جاهًا وشرفًا . فما احسن ما تكون وقتئذ الالف الليرة . فالغنى يسكت الوشين والناس ينسون في الغد ما كان من امس . اذن سابقي المال في يدي

ويقول بنتام (Bentham) وسبنسر (Spencer) (١ وغيرهما : يجب عليك رده بحق صالحك الذاتي

— صالحي الذاتي ! عافاكم الله . هذا مذهبي وقد طالما دافعتُ عنهُ وناضلتُ مع اخوانكم المتفلسفين

— ولكنك لا تفهم اين صالحك الحقيقي

— اهدني اليهِ جعلتُ فداك

— صالحك الحقيقي ان تنظر في عواقب الامور حتى ترى ايها اعظم منفعة لك فتمسك بها ضرورة

— اقرّ بلا مواربة بانني لم افهم بعد كيف يضطرني ذلك لردّ الالف الليرة . واني بالاحرى ارى في قولكم ما يثبت عزمي . لاني اولًا لا اجد ضرورة في اختيار ما هو اكثر منفعة لي فلربّ اناس افاضل ضحوا ما كان مفيدًا لهم . وثانيًا ان كان الواجب ما هو لشد تفنّا فحبذا المبدأ فاني متمسك بهِ كل التمسك . وعليهِ اخزن في صندوقي الالف الليرة

١) بنتام (١٧٤٨–١٨٣٢) كاتب وفقيه انكليزي — واما سبنسر فهو اشهر من ان نعرّفه

— انك لفي غرور مبين لانك لم تدخل في حسابك كل ما يتأتى عن فعلك من الشرور اعني العار والدعاوي وتعب البال واخيرًا السجن وعذابه

— لست بمغرور اصلًا فكل ذلك تبصرت فيه ثم حكمت بان صالحي الاعظم هو في حفظ المال لاني اولًا لا اخشى العار اذ لا شاهد عليَّ . ثم الدعاوي وتعب البال فهي هيّنة عندي في جانب الفقر والذل . واما السجن فهيهات فاني اعزّ من عقاب الجوّ لا ينالني احد اذ الحاكم لا تقضي على احد الّا اذا ثبتت عليه الشبهة بالبينات الواضحة . ومع ذلك فاني ان احسست بخطر تركت بلادي وطرت الى حيث لا يدري بي احد

— أما تخاف تبكيت الضمير فانك ان فررت من الناس لم تهرب منهُ الابد

— تبكيت الضمير ؟ واي شيء هو ؟ هذا اسم بلا مسمى في عصرنا عصر العلم والتمدن . كان له معنى لما كنّا نعتقد وجود الله اذ كان الضمير صدى صوت الديان العادل . اما الآن وقد نبذتم هذه الخرافات فكيف تخوفني بتبكيت الضمير ؟ وعمر الحق ان صاح الضمير لاسكتهُ . وما اصلح الالف ليرة لبلوغ تلك الغاية

هذا كل ما عند هؤلاء الفلاسفة وهم كما رأيت عاجزون عن اقحام هذا الشيطان المتفلسف وقد سُمّوا باسم يجب معرفتهُ وهو les Utilitaires وقد ترجمتهُ بلفظة « الغرضيين » لان الواجب عندهم هو ما يعود على الانسان بالمنفعة الذاتية وهو قول فاسد يظهر بطلانه لاول وهلة فضلًا عمّا قالهُ س

ولعلّ « الغيريين » اقوى ذرعًا على اقناعه . و « الغيريون » لفظة اعتذر من قرّائي على نحتها مع ما فيها من السماجة فانا بمحقوق انّا الذنب على اصحاب هذه المذاهب فانهم دعوا انفسهم باسم Altruistes وترجمته الحرفية « غيريون » نسبة الى الغير . ومن فضولهم انهم يستكفون من استعمال لفظة charité (محبة) وما قابلها في اللغات الاوربيّة لانها اصطلاح مسيحي فبدلوها بلفظة « الغيريّة » اعني الميل الى الغير وعكسها الانانيّة وهي حبّ الذات (١

يقول هؤلاء لصاحبنا س : يا فلان وحقّ « الغيريّة » وحبك لصوالح الجنس البشري اردد الوديعة

١) ومنهم اوغست كونت (١٧٩٨–١٨٥٧) الفيلسوف الفرنسي زعيم « الوضعيين » (les Positivistes) وستوارت ميل (١٨٠٦–١٨٧٣) وهو من « الاقتصاديين » الانكليز المشهورين

— وما يهم الجنس البشري ان ارد المال

— اعلم ان كل فعل صالح يأتي به الافراد نافع للجنس البشري كله لانهُ كفيل راحتهم وسبب سعادتهم

— امَّا انا فلا ارى كيف ان ردّ الوديعة نافع للجنس البشري كله ولو قلتم لي انهُ نافع جدًا لصاحبه لفهمت المقال واما انهُ مفيد لكل حيّ نطلق على وجه البسيطة فهذا لا يدخل لبي وعلى كل حال فلست موكلًا بتدبير شؤون الناس ومراعاة صوالحهم

ثم بعد « النيريين » ينتصب للمدافعة عن الحقّ فرقة اخرى من المستقلة اسمهم « التكافلة » les Solidaires وهم يرون في تعلق الناس بعضهم ببعضهم شاؤوا ام ابوا وارتقاء الجنس البشري ما يكفل لهم حقوق الواجب فاسمع كيف يحاولون اقناعك

— ان الذي يلزمك يا هذا بردّ الوديعة هو « التكافل » وسنة الارتقاء

— التكافل ! ما هذا ؟

— « التكافل » هو ارتباط البشر بعضهم ببعض بحيث لا يستطيع الانسان من اي جيل كان ان يأتي فعلًا الَّا وقد اثر عمله في الهيئة الاجتماعية كلها . هذه الشريعة خاضع لاحكامها كل من كان عضوًا للعائلة البشريَّة

— ثم بعد ماذا ؟ لاني الى الآن لم يظهر لي كيف التكافل يستوجب عليَّ اداء المال

— ثم انَّ شريعة الارتقاء المقدسة التي تقضي على كل انسان بالجد والسعي فيما يؤول الى خير الجمعيَّة تأمرهُ بالَّا يأتي منكرًا يضر بتلك الهيئة الاجتماعية او بالحري بذاك الجسد الذي هو عضو من اعضائه . فيجب اذًا على كل ان يضحي صوالحه الشخصية لصوالح الكل

— وانا ما لي وصوالح الانسانية ؟ ايّ منفعة تعود عليَّ اذا ارتقت الانسانية يومًا في معارج الفلاح وبقيت انا في حالة الشقاء ؟

— أما يهمك نجاح البشريَّة ؟ أفما هذا خير لا اعظم منهُ على الارض ؟

— ومن ينكر انهُ خير عظيم الَّا اني لست مضطرًا اصلًا الى اجرائه فحسبي ان اعيش عيشة هنيئة مستريحة وهو امر تساعدني على بلوغه الالف الليرة التي في صندوقي . واما ما ينتج عن فعلي هذا وتأثيره في الاجيال الآتية فاي عاقل يستطيع ان يتحققهُ بل الاحق

من اكتشف به . فما هي نقطة الماء مع عظم البحر وكبره ؟ وما افعالي الا كقطرة ماء مع ما تجني ايادي البشر من يوم ظهروا على الارض الى يوم انقراضهم

قال هذا وابقى المال في قبضته

هذه اهم المذاهب التي يعتمد عليها اصحاب « الادبيات المستقلة » وقد ضربنا صفحاً عن غيرها لانها وان زهت يوماً الا انها لم تلبث ان اضمحلت فكانت كزهر الحقل يضيء نوره صباحاً ثم لا تغيب الشمس عليه الا وقد جف ومات . ولكننا نخص بالذكر منها مذاهب الذين يقولون ان الجمال هو اساس الواجب او انهُ العلم او الحرية . ولا يخفى على احد ضعف هذه ايضاً فان الجمال اعني جمال الافعال الصالحة لا يؤثر الا في القسم الاصغر من الجنس البشري . ثم ان الجمال تصور اكثر مما هو عين فاننا غالباً نضع الجمال في غير موضعه ولا شكّ في ان صاحبنا يرى الالف ليرة في جيبه اجمل منها في صندوق صاحبها . اما العلم الذي قال عنهُ موسيو برتلو « انهُ العامل الاعظم في التمدن والمثل على البشر الازمنة المباركة أيامًا ترى فيها المساواة والاخاء بين الكل في الخضوع لسنة العمل الشريفة » فلا يدري لشياعه كما يتضح لك من كلام العلامة المذكور كيف يكون اساً للآداب ولا كيف يربط الذمة برباط الضرورة الادبية لان العلم لا يتعدى العقل واما الواجب فمركزه الارادة . واما الحرية فهي عاجزة عن كبح الشهوات واستحلال المحرمات . قال جول سيمون : « ان حريتي توجب على الغير مراعاة حرمتها . على هذا التعاهد تقوم كل الفلسفة الادبية » وانما هذا تعاهد انكواسر اذا شبعت فتحرير معناه هو هذا : انا شبعان وانت شبعان فصالحنا ان نعيش بالسلام وإلا فان آذيتني اذيتك — واما اذا كان الواحد جائعاً والآخر شبعان لا يرفق بصاحبه فما الذي يكبح شهوة الفقير عن انتهاك حرمة الغني ليسد عوزه ؟

فترى كيف ان تلك الاقوال ساقطة وكيف ان من ترك التمسك بوجود الباري عزّ وجلّ لا يجد ما يربط به الضمائر ولئلا يظن القارئ اننا نعبث بمسائل لا يعبث بها فها نحن نبين لهُ بوجه الاجمال أنهُ لا يمكن الاستغناء عن وجود الله في تقويم الآداب اصلًا ولما لم يكن عن الآداب استغناء وجب القول اذ ذاك بان الله موجود وهو قول مطابق لما يتوصل اليه العقل رأساً بمشاهدة هذا العالم المتناهي